

التاريخ الاشتراكي لجان جوريس

بقلم: الدكتور جلال يحيى

١٨٥٩ . وبدأ دراسته في هذه المدينة ، ثم ذهب لاكمالها في باريس في مدرسة سانت بارب Sainte-Barbe ثم في ليسيه لوى ليجران . وتقدم لامتحان مسابقة القبول في مدرسة المعلمين العليا سنة ١٨٧٨ ، وكان الأول في هذه المسابقة . وتخرج من قسم الفلسفة فيها سنة ١٨٨١ ، ودرس الفلسفة لمدة سنتين في ليسيه آلبى ، ثم لمدة سنتين آخرين في كلية الآداب في تولوز . ونزل الى الانتخابات في سنة ١٨٨٥ وأصبح نائبا عن تارن .

وبدأ جان جوريس حياته النيابية كجمهوري معتدل ، ولكن سرعان ما ظهرت آراؤه التقدمية وترك « يسار الوسط » ، لكي يجلس في مقاعد اليسار . ولقد شارك في مناقشات عديدة ، أظهرت ملكاته الخطابية .

ولكن جان جوريس فشل في انتخابات سنة ١٨٨٩ ، فعاد الى كلية الآداب ، وكان النجاح الذي أصابه في محاضراته سببا في تعيينه عضوا في بلدية مدينة تولوز ، ومساعدة لعمدتها (رئيس

يعتبر جان جوريس مؤسس الحزب الاشتراكي الفرنسي ، وعلمنا من أعلام الاشتراكية الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين . وكان أستاذا وفيلسوبا ونائبا وخطيبا مفوها ، وزعيما شعبيا في نفس الوقت . ولقد أثمرت جهوده مع زملائه في تقوية الحركة الاشتراكية في فرنسا ، وبشكل جعلها تنزعهم الحركات الاشتراكية في العالم ، في الفترة السابقة لاعلان الحرب العالمية الأولى . وكان اغتياله في اليوم السابق لاعلان هذه الحرب يمثل قوته وقيمته ضد هذه الحرب ، والتي كانت تمثل مصالح كبار الرأسماليين ، وعلى حساب الطبقات الكادحة والمنتجة . وكان أشهر كتبه التي أشرف عليها وشارك في تأليفها هو كتاب التاريخ الاشتراكي Histoire Socialiste 1789-1900. ١٩٠٠ - ١٧٨٩

ولد جان جوريس في مدينة كاستر Castres في مقاطعة تارن Tarn في ٣ سبتمبر سنة

مجلس المدينة المنتخب (لشئون التعليم ، ولمدة ثلاث سنوات . ولقد تحدث بهذه الصفة حين حضر رئيس الجمهورية لزيارة المدينة في سنة ١٨٩١ . وكان قد ساعد في انشاء كلية الطب في هذه المدينة ، وسلم المباني الجديدة الخاصة بكليتي الطب والآداب ، وباسم المدينة . وفي أثناء ذلك الوقت أكمل رسالتي الدكتوراه ، الأولى : « من حقائق العالم الحساس »

de la Réalité du Monde Sensible

والثانية عن «الأصول الأولى للاشتراكية الألمانية» ، وكانت باللاتينية : De Primis Socialismi Germanici Lineamentis apud Lutherum, Kant, Fichte et Hegel.

ونجح جان چوريس في انتخابات سنة ١٨٩٣ ، وطبقا لبرنامج اشتراكي واضح تقدم به . ونجح نتيجة لتأييد عمال المناجم في المنطقة له ، وذلك بعد تأييده الأدبي الطويل الذي قدمه لهم چوريس في أثناء اضرابهم الشهير في كارمو Carmaux وتنتيجة لاجابهم به وببرنامجهم وبمقالاته في جريدة ديبيش Depêche في تولوز . ولقد ساعدته حركة الاضرابات في شمال فرنسا بعد الانتخابات في أن يصبح رأس الحركة الاشتراكية . وبمجرد افتتاح البرلمان تقدم چوريس باستجواب شهير عن هذه الاضرابات ، وبشكل سمح باظهاره كأكبر زعيم وكرئيس للمجموعة الاشتراكية في البرلمان . وكانت فصاحته في الخطابة تجعل خطبه رنانة وغنية بالألوان والأصوات ، ومملوءة بالألفاظ الشعبية . وكانت تلقى قبولا واعجابا وتجاوبا كاملا من مستمعيه ، حتى وان كانوا من خصومه السياسيين . ودافع چوريس في البرلمان وأمام الأهالي عن سياسة اليساريين ، وأصبح نائبا لرئيس مجلس النواب

وحين هزم چوريس في انتخابات سنة ١٨٩٨ كرس كل مجهوده للاشتراكية ، سواء أكان ذلك بقلمه أو فكره أو لسانه . واستمر ذلك حتى سنة ١٩٠٢ . وظهر چوريس كرجل من رجال السلام العالميين .

ولقد استخدم چوريس ملكاته الخطائية ومواهبه في أثناء الحملة التي قام بها ، وفي أثناء نظر قضية دريفوس . فقام بحملة كبيرة تمثل في عدد من المقالات والمحاضرات والخطب ، وكتب كتابا باسم الأدلة Les Preuves أثر تأثيرا كبيرا على الموضوع ، وأثر في الرأي العام . ولقد حارب چوريس التعصب الرجعي والتحكم عند رجال الدين والعسكريين . ورغما عن أن چوريس كان يعمل على تنمية الشعور الوطني والقومي عند الفرنسيين ، فانه قد اعترف بنفس الحق لأصحاب القوميات الأخرى ، والتي تكون مع بعضها ، وطبقا لنظرية هيجل ، دررا في تلك السلسلة الذهبية للانسانية .

ولقد شارك بنجاح في ادارة الجريدة الاشتراكية المسماة « بالجمهورية الصغيرة » Petite Republique ، وكتب في المجلة الاشتراكية Revue Socialiste التي كانت قد بدأت في الظهور منذ سنة ١٨٨٥ ، ثم أشرف على ادارتها . وأسس في سنة ١٩٠٤ جريدة ليومانيته L'Humanité التي دافع على صفحاتها ، وحتى آخر أيام حياته عن آرائه ومنهجه الاشتراكي ، وقاد فيها حملة قوية ضد القوميين الفرنسيين ، وضد نمو الامبرياليات في اوربا .

ولقد أعيد انتخاب جان چوريس في سنة ١٩٠٢ ، ١٩٠٦ ، ١٩١٠ وساعدته قوته على العمل ، ومهارته الخطائية على زيادة مجهوده ومشاركته

فى كل المناقشات البرلمانية . وكانت مناقشة المشكلات المغربية ، واضراب عمال الكهرباء ، وعمال السكك الحديدية والبريد ، والمناقشات الخاصة بالضرائب والسياسة الداخلية والخارجية ، وقوانين الانتخابات وتعديلها فرصا مكتته من المساهمة فى هذه المناقشات بشكل واضح وفعال ، ومن القاء خطب رنانة وساحرة ، كثيرا ما هزت الأغلبية البورجوازية فى المجلس .

وكان جان چوريس خطيبا مفوها ، يخاطب المشاعر والعقل فى نفس الوقت ، وكانت خطبه ممتازة ومتجانسة ، وكانت قراءاته واسعة وعميقة وقوة تأثيرها شديدة . وكان مقنعا لسامعيه وظهر على أنه قائدا لحزبه ، ورجل دولة بعيد النظر . وكان أسلوبه ساحرا ويكبت انتباه سامعيه ، وأثر بعظمة هذا الأسلوب ووضوحه ، علاوة على سلامة حججه وثروة تصويره فى خصومه ومخالفيه فى الرأى .

ولقد استنبط جان چوريس اشتراكته من الفكر الديموقراطى ، وكانت اصلاحية وتطورية ، وكان يعتبر أن الإصلاح الاجتماعى ، وتأميم الملكيات ورؤوس الأموال نتائج منطقية لتطبيق الديموقراطية السياسية ، وأساسا لازمة لها فى نفس الوقت ، فأصبحت الاشتراكية بهذا الشكل ديموقراطية اقتصادية ، تمكن الشعب من الوصول من السيادة السياسية الى السيادة الاقتصادية ، وتمكنه من السيطرة على كل موارد الثروة المؤمة . ويعتبر چوريس هذه الإصلاحات كلها مجرد اصلاح جزئى للأوضاع الاقتصادية للطبقات العاملة ، بل مجرد خطوة فى طريق الثورة الاجتماعية ، خاصة وأن هذه الإصلاحات ستصل ، بعد اضافتها لبعضها ، الى تغيير عضوى وعميق

للمجتمع . ولقد اعترف چوريس بالصراع الطبقي كحقيقة تاريخية ، وأصر فى كل فرصة على العظمة الأخلاقية للثورة الاجتماعية ، تلك الثورة التى كان يرغب فى أن يراها تحدث ، ولكن بدون عنف ، وكنتيجة لتكتل قوى البروليتاريا الثورية ، والديموقراطية التقدمية .

وكان چوريس مثاليا واعترف بالقيمة العلمية والتاريخية لأراء كارل ماركس ، واعترف بالدور التاريخى للبروليتاريا كعامل أساسى ولازم للتغيير الاجتماعى ، وإن كان قد فكر فى امكانية التقريب بين المادية الماركسية وبين آرائه هو ، المثالية . ويعتبر التاريخ الاشتراكى أحد التفسيرات الاقتصادية البارة للثورة ، كما حاول أن يقرب بين طريقة دراسة التاريخ الاجتماعى لكارل ماركس ، مع طريقة الدراسة التاريخية الخاصة بالبطولة أو الدراما ، حسب طريقتى بلوتارك وميشيليه .

ولقد تزايدت القوى الاشتراكية نموا فى كل يوم ، فى فرنسا ، وفى بقية أوروبا . وكانت فرنسا قد شهدت منذ سنة ١٨٨٠ نشأة حزب العمال مع برامجه الخاصة بالادارة الداخلية للبلاد ، والخاصة بالصناعة والزراعة والملاحة ، كما شهدت تحول « اللجنة الثورية المركزية » التى أنشئت فى سنة ١٨٧١ الى « الحزب الاشتراكى الثورى » ، وشهدت كذلك ظهور « اتحاد العمال الاشتراكيين » ، وميلاد « حزب العمال الاشتراكى الثورى » ، وتجمع المثقفين داخل حركة « الاشتراكيين المستقلين » ، وكان المجال خصبا للعمل ، ولتوحيد الجهود ، خاصة وأن الفكر كان متقاربا بين أعضاء هذه المنظمات ، وهدفهم واحدا . وكان المناخ الفكرى ومجال النضال يعلمان سويا على توجيه

فرنسا ، وتدعيها لها ببقية الحركات الاشتراكية في العالم .

وكان نجاحه في توحيد المجموعات الاشتراكية الفرنسية هو أمل حياته ، ويتمشى مع عقيدته ومع آرائه الفلسفية ، والتي تتميز بصورة عامة بفكرة الوحدة . ولقد ظهرت فكرة الوحدة واضحة في كل نشاطه السياسى والاجتماعى ، وكانت تقوم على أساس التضامن والتكتل ، وحاول عن طريقها اعطاء تفسيرات جديدة للآراء التقدمية . وبنى جوريس بها الشكل الكامل للاشتراكية كديموقراطية وحرية فكرية ، ولقد حارب جوريس من أجل الفكرة العلمانية ، وكان من أبرز رجال الصف الأول الذين جاهدوا من أجل فصل الكنيسة عن الدولة في فرنسا . وكان يجمع بين عاطفية عميقة وبين ذكاء وفكر واضحين ناضجين ، وحاول أن يقرب بين المتناقضات ، ويخلق بشرا متكاملين .

وكان هذا هو مصدر قوته ، ومصدر ضعفه في نفس الوقت ، لأنه كان يؤمن بخيرية الرجال والأشياء وأحاطت به عوامل الحقد ، والكراهية القومية وأهمل أمنه الشخصى ، وفي ١٥ يوليو سنة ١٩١٤ خطب جوريس خطبة هامة أوضح فيها مسئولية فرنسا ومسئولية الدول الرأسمالية الأخرى في تلك المصيبة التى ستحل بالعالم ، الا وهى الحرب وشرح ضرورة وقفها وتكتل الطبقة الكادحة فى كل أوروبا ضدها .

وتلبد جو-أوروبا بغيوم الحرب وبسرعة بعد قتل الارشيدوق ولى عهد النمسا وزوجته فى الصرب . فعمل جان جوريس ورجال الحزب الاشتراكى الفرنسى والرجال الاشتراكيون فى العالم على التدخل لدى حكوماتهم لتوقف تدهور الموقف ، ولتفادى الحرب وتنازل مقالات جان جوريس فى جريدة ليوملنيتيه مطالبة بضرورة

هذه المجموعات صوب الوحدة فى التنظيم والكفاح . ولعب جان جوريس ، بصفته من انصار الوحدة ، دورا كبيرا فى هذه العملية ، والتي كانت ضرورية فى فرنسا فى ذلك الوقت للوصول الى توحيد مجهودات الاشتراكيين فى العالم أجمع .

ولكن مؤتمر باريس الاشتراكى المنعقد فى سنة ١٩٠٠ قابل صعوبات تتعلق بموقف الوزراء الاشتراكيين ، الذين يدخلون فى وزارات ائتلافية ، وموقف الحزب الاشتراكى من حركة لاصلاح غير الثورية ، وانتهى بانقسام أعضاء المؤتمر الى قسمين مختلفين ، نشأ عنهما : الحزب الاشتراكى الفرنسى ، وحزب الاشتراكيين الفرنسيين . وأمام هذا الموقف قام جوريس ببذل مجهود واضح ، بمقالاته وخطبه للتوفيق بين الفريقين . وأثمرت مجهوداته فى المؤتمر الدولى الاشتراكى المنعقد فى امستردام سنة ١٩٠٤ ، وتكون من الحزبين القسم الفرنسى للحركة العمالية العالمية . Section Française de l'Internationale Ouvrière

التي تحدد تكوينها وخطط عملها بصفتها حزبا لطبقة ، هى الطبقة العاملة ، وكذلك تحددت أهدافها الاشتراكية ، وعلاقتها بالديموقراطية ، واتفقت على ضرورة « اشتراكية » وسائل الانتاج والتبادل ، وعلى طريقة التنظيم السياسى والاقتصادى للبروليتاريا ، وطريقة عملها السياسى ، وأصبح هذا القسم الفرنسى للحركة العمالية العالمية يعتبر داخل فرنسا على أنه هو « الحزب الاشتراكى » وأصر على أنه لا يكون حزب اصلاح ، ولكن حزب صراع طبقى وثورة ، كما رسم تجمع النواب الاشتراكيين فى البرلمان فى مجموعة متحدة ، وفى مواجهة كل القوى السياسية البورجوازية . وكان نجاح جان جوريس فى هذه العملية يعتبر نصرا كبيرا للحركة الاشتراكية فى

التدخل لمنع النمسا من التوسع ولمنع روسيا من الحرب الى جانب الصرب ، خاصة وأن رئيس الجمهورية الفرنسية كان في ذلك الوقت في زيارة رسمية لروسيا . وكانت هناك بارقة من الأمل وطالب جوريس بضرورة الاحتفاظ بالهدوء ، وفضح هذه الحرب على أنها لا تخدم الا مصالح الرأسمالية والبورجوازية في كل البلدان وعلى حساب الشعوب والطبقة الكادحة، وتكونت لجنة من الحزب الاشتراكي الفرنسي للاتصال بالحكومة في هذا الشأن ، كما سافر جان جوريس لتمثيل فرنسا في المؤتمر الاشتراكي الدولي الذي انعقد في بروكسل ليلة ٢٩ يوليو لمحاولة تفادي الحرب . وزادت فصاحته وملك على العمال شعورهم وعقولهم حتى هتفوا بحياته وحياة فرنسا وبالثورة من أجل السلام ومن أجل العدالة .

ولكن ألمانيا كانت مصممة على النزول الى ميدان الحرب ، ومصممة على اجبار فرنسا على النزول اليها كذلك ، وظهر هذا الاتجاه واضحاً حين طلبت منها تسليم قواعد حرية معينة في شرقها ، فزاد ذلك من قوة العناصر اليمينية ، التي أخذت تنادي بضرورة الزحف على برلين ، وفي الوقت الذي كان الاشتراكيون يحاولون فيه منع الحرب ، وتكتيل العمال ضدها ، والدفاع عن مصالح هذه الطبقة في كل مكان ، وضد مصالح وامتيازات الرأسمالية والبورجوازية في كل أوروبا . وفي هذا الجو ، اغتيل جان جوريس اثر عودته من بلجيكا، وفي الوقت الذي كان يتناول فيه العشاء مع مجموعة من زملائه في أحد مطاعم مونمارتر يوم ٣١ يوليو سنة ١٩١٤ . وكانت صدمة عنيفة للقوى الاشتراكية وفي هذا الوقت العصيب من تاريخ الحركة الاشتراكية في العالم . واشتركت في جنازته جموع غفيرة من الاشتراكيين ، وساروا في صمت مهيب في

شوارع باريس المقفرة ، وكأنهم يودعون أملاً من آمال السلم والعدالة . وساروا حتى محطة أورساي التي نقل منها القطار جثمانه حتى مسقط رأسه . ولقد فقد العالم بفقده عالماً واستاذاً وفيلسوفاً وأديباً وناقداً وخطيباً مفوهاً ، وفقدته الحركة الاشتراكية في وقت كانت الانسانية في أشد الحاجة اليه ، وإلى مجهوده ونشاطه .

ولقد كتب جان جوريس ونشر كثيراً من المقالات والكتب فخص بالذكر منها :

L'Action Socialiste.
Le Socialisme et l'Enseignement.
Le Socialisme et les Peuples
Etudes Socialistes.
Discours Parlementaires.
L'Armée Nouvelle, etc...

ولقد قام الحزب الاشتراكي الفرنسي بطبع عدد كبير من خطبه ومحاضراته وخصوصاً :

Deux Méthodes ;
Idealisme et Matérialisme ;
L'Internationalisme à la Chambre,

ونشر Max Bonnefoux مجموعة مؤلفاته باسم
Oeuvres de Jouries. Vol. 1 et II. Paris, 1931.

ويعتبر التاريخ الاشتراكي ١٧٨٩ - ١٩٠٠ -
Histoire Socialiste 1789-1900

أشهر الكتب التي أشرف عليها ، وشارك في كتابتها

ولقد نشر التاريخ الاشتراكي ، في طبعته الأولى من سنة ١٩٠١ إلى سنة ١٩٠٩ في باريس عند Jules Rouff et Cie. في ثلاثة عشر مجلداً ثم أعيد طبع الأربعة مجلدات الأولى منها في ثمانية مجلدات بأشرف A. Mathiez من سنة ١٩٢٢ إلى سنة ١٩٢٤ :

الجزء الأول عن : La Constituante
والجزء الثاني عن (1791-1791) La Législative.

الكوميون ١٨٧١ وكتبه لوى دبروى
La Guerre Franco-Allemande (1870-1870),
et la Commune (1871).

والجزء الثانى عشر عن : الجمهورية الثالثة ١٨٧١
— ١٩٠٠ وكتبه جون لا بوسكير

وخاتمة عن النتائج الاجتماعية فى القرن التاسع
عشر كتبها جان جوريس

La Troisième République (1871-1900) ; La
Conclusion, le Bilan Social du XIXe Siècle.

أما الجزء الثالث عشر فخاص بالفهارس الأبجدية
والكشف .

ولقد كان هدف جان جوريس من نشره لمجموعة
مجلدات التاريخ الاشتراكى هو أن يروى للشعب
وللعمال ولل فلاحين الأحداث التى وقعت منذ سنة
١٧٨٩ حتى نهاية القرن التاسع عشر . وكان يعتبر
أن الثورة الفرنسية هى حادث جلل وفى منتهى
الخطورة ، لا مجرد حدث قائم بذاته منفصل عن غيره
يذكر فى سجل التاريخ مثل غيره من
الأحداث ، وكأنه دون نتائج عميقة ، اذ أنه
يؤمن بأن الثورة الفرنسية قدمهدت الطريق وبشكل
مباشر أمام نمو قوة البروليتاريا فى هذا الاقليم
وأنها حققت سببين أساسيين لنمو الاشتراكية وهما
الديموقراطية والرأسمالية ، وان كانت فى أساسها
قد استغلت من الناحية السياسية عن طريق الطبقة
البورجوازية .

ولقد عملت كل الحركات الاقتصادية والسياسية
ونمو الصناعة الكبيرة ، وتزايد عدد طبقة العمال ،
وزيادة آمالها ، مع المصاعب التى واجهت الفلاحين
الذين خضعوا للتنافس وقامت الاقطاعية الصناعية
والتجارية باستغلالهم ، عمل كل ذلك مع تلك
الفوضى الأخلاقية التى سادت عند المثقفين
البورجوازيين ، وفى المجتمع التجارى القاسى ، عمل

La Convention : I ; La République ; Les idées
Politiques et Sociales de l'Europe et la
Révolution (1792).

والجزء الثالث عن : الوفاق ؛ I الجمهورية والآراء
السياسية والاجتماعية فى أوروبا ، والثورة (١٧٩٢)

والجزء الرابع عن : الوفاق ؛ II موت الملك والآراء
الاجتماعية للوفاق ، والحكومة الثورية .

١٧٩٣ — ١٧٩٤

La Convention : II ; La Mort du Roi, idées
sociales de la Convention, Gouvernement
Révolutionnaire 1793-1794.

وكتبها كلها جان جوريس .

والجزء الخامس عن : ترميدور وحكومة الادارة
وكتبها جابريل ديفيل

Thermidor et Directoire (1794-1799).

والجزء السادس عن : القنصلية والامبراطورية
١٧٩٩ — ١٨١٥ وكتبها بول بروس وهنرى تيرو
Consulat et Empire (1799-1815.)

والجزء السابع عن : عهد الملكية العائدة ١٨١٤
— ١٨٣٠ وكتبه رينيه فيفيانى
La Révolution, (1814-1830).

والجزء الثامن عن : عهد لوى فيليب ١٨٣٠ —
١٨٤٨ وكتبه يوجين فورنيير
Le Règne de Louis-Philippe (1830-1848.)

والجزء التاسع عن : جمهورية ١٨٤٨ ، (١٨٤٨ —
١٨٥٢) وكتبه جورج رينار
La République de 1848 (1848-1852.)

والجزء العاشر عن : الامبراطورية الثانية ،
١٨٥٢ — ١٨٧٠ وكتبه البير توما
Le Second Empire (1852-1870).

والجزء الحادى عشر عن : الحرب الفرنسية
الالمانية ١٨٧٠ — ١٨٧١ وكتبه جان جوريس وعن

كل ذلك على الاعداد لأزمة اجتماعية جديدة ، وللتמיד لثورة عميقة يتمكن فيها العمال من الاستيلاء على السلطة وتغيير شكل الملكية ومعناها . انه تقدم القوى الاجتماعية منذ سنة ١٧٨٩ ، وهو الهدف الأساسى من كتابة هذا التاريخ فى خطوطه العريضة . حقيقة أن محاولة تقسيم هذه الفترة تقسيما واضحا وبشكل مستمر يتعارض مع مفاهيم الحياة والنمو والتطور، ولكن اللجنة التى أشرفت على تخطيط هذا المؤلف قد تمكنت من التمييز بين ثلاث فترات متميزة فى تاريخ الطبقة البورجوازية وطبقة البروليتاريا فى القرن التاسع عشر ، وعلى هذا التقسيم وضعت الخطوط الأساسية لكتابة التاريخ الاشتراكى .

ولقد نجحت البورجوازية الثورية منذ سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٨٤٨ واستولت على السلطة . واستخدمت قوة البروليتاريا ضد الحكم الملكى المطلق وضد النبلاء . ولكن هذه القوة البروليتارية لم تمثل الا قوة خاضعة وأساسا يستند عليه الطموحين رغم نشاطها الكبير ورغم الدور الحاسم الذى لعبته فى أيام معينة . حقيقة أن البروليتاريا كانت ترهب الملاك البورجوازيين وتعمل على اخافتهم ، ودفع ذلك البورجوازية الى أن تدافع عن مصالحها ودون أن تفكر فى تنظيم اجتماعى مختلف . ويذكر التاريخ تلك التجارب الشيوعية التى قام بها باييف ، وتلك الحفنة من أنصاره ، والتى تمثل زبدة هذه الأزمة الثورية قبل تولى القنصلية والامبراطورية زمام الأمور - وحتى فى سنتى ١٧٩٣ ، ١٧٩٤ كانت البروليتاريا تائهة وضائعة بين الطبقة الثالثة ، ولم يكن لها وعى واضح بطبقيتها ، ولم تتساح برغبة للوصول الى أهدافها أو ترى شكلا آخر من أشكال

الملكية . وعجزت البروليتاريا عن أن تطالب بأكثر مما فهمته من آراء روبسبير الضحلة ، وحجزت على نفسها داخل سيادة الديمقراطية السياسية ، دون أن تفكر فى تغيير الأوضاع الاقتصادية ، ولعبت مع غيرها بذلك دور صغار الملاك الزراعيين والبورجوازية الصناعية الصغيرة . ولم يكن رحيق الحياة الاشتراكية بقوة خلقها وغناها وجمالها وسعادتها قد وصلت بعد الى هؤلاء المكافحين . وكانوا يلقون بأنفسهم فى النيران ويحترقون مع اللهب ، لهب الغضب والرغبة ، ولكنهم جهلوا فى نفس الوقت سحر وقوة وجمال المثل الجديدة .

ورغم ذلك فما أن بدأ المجتمع البرجوازى فى الاستقرار حتى بدأت الطلائع الأولى للفكر الاشتراكى فى الظهور . وبعد باييف ، ومنذ سنة ١٨٠٠ حتى سنة ١٨٤٨ رأت الانسانية فورييه ، وسان سيمون ، وبرودون ، ولوى بلان . وهكذا نشبت الثورات فى ليون وباريس تحت حكم لوى فيليب - فهل كان انتصار الثورة البورجوازية كاملا ؟ - لقد كان الشعب يطالب بمعرفة سبب مقاساته ويحاول أن يعرف أى نوع من الثورات عليه أن يعلنها لكى يتخلص من مساوئ النظام القائم . وفى خضم هذه الثورة البورجوازية التى بدأت عنيفة مضطربة ثم هدأت ووضحت خطوطها بدأت القوى العاملة ، وهى تكدح فى التفكير فى الأوضاع ، ولكن سيطرة البورجوازية ظلت كاملة قبيل سنة ١٨٤٨ رغم تعدد النظم الاشتراكية وتعدد ثورات العمال .

ولم تكن البورجوازية تعتقد فى امكانية فقدها للسلطة ، أو تحويل الملكية . وتميزت البورجوازية فى عهد لوى فيليب بالقوة اللازمة للكفاح من ناحية ضد النبلاء ورجال الكنيسة ،

ضدها وبتكتيل كل قوى البورجوازية وملاك الأراضي الزراعية الذين بدأوا يرهبون هذا الشعار الأحمر . ولكن النظريات الاشتراكية كانت لا تزال مترددة ويسودها نوح من الفوضى ، وكانت شيوعية كاييه وتعاونية برودون ، ودولية لوى بلان ، وكانت كلها تتضارب وتعارض ، وكان القالب النهائي اللازم لاجراج شكل القوى العمالية لم يصنع بعد . وكان المفكرون والفلاسفة يتنازعون المادة الأولية وهى خارجة من المصهر ، وفى نفس الوقت كانت الرجعية يقودها رجل ديسمبر ، الامبراطور نابليون الثالث ، وتعمل على تحطيم كل هذه القوالب وتعمل على تبريد الصلب المصهور . وحتى فى عهد الكوميون نفسه أعطى كل من أنصار لابنكى وماركس وبرودون اتجاهات مختلفة أثرت فى تفكير العمال ، وكان كل منهم يرى فى انتصار الكوميون نصر للمثل الأعلى الاشتراكى .

وكان هناك علاوة على ذلك اضطراب وتداخل فى الحركة نفسها ، كما كان هناك اضطراب وتداخل فى الأفكار . وكانت ثورة سنة ١٨٤٨ قد نتجت على أكتاف كل من الديمقراطية الراديكالية لصغار البورجوازيين ، وعلى أكتاف اشتراكية العمال وفى أيام شهر يوليو أُلقت الديمقراطية البورجوازية بالبروليتاريا على قارعة الطريق فى باريس . وكذلك الحال فى سنة ١٨٧١ التى كانت ثورة بورجوازية التجار الحاققة من قوانين الدفع ومن صرامة الاحتلال وحكومة فرساي ، وكانت فى نفس الوقت نتيجة لفقد ثقة الوطنيين وخوف الجمهوريين فى باريس ، ومن كل ذلك خرجت حركة الكوميون .

ومن ناحية أخرى ضد العمال . وتمكنت من كبت الثورات فى الغرب ومن القضاء على ثورات البروليتاريا فى المدن الكبيرة الجائعة ، وكانت البورجوازية تعتقد ، متفقة فى ذلك مع غرور جيزو على أنها هى آخر المطاف وآخر حكم فى العالم ، وأنها قد حصلت على مقومات تاريخية وفلسفية تسمح لها بالاستمرار فى الحكم ، وتنظر الى نفسها على أنها تلخص المجهود الأساسى لفرنسا ، وعلى أنها التعبير الاجتماعى لكل ما هو معقود . أما البروليتاريا فكانت من جانبها ، ورغم خضوعها للبؤس والجوع لا تمثل قوة ثورية واعية ، وكانت لا ترى بوضوح امكانية قيام نظام جديد . ولذلك فإن « المثاليين » الاشتراكيين قد بدأوا فى نشر آرائهم بين المثقفين . وجاءت النظم الاشتراكية مشربة الى درجة بعيدة بتفكير رأسمالى ، كما هو الحال عند سان سيمون ، أو بأفكار البورجوازية الصغيرة ، كما هو الحال عند برودون . واحتاجت فرنسا الى الأزمة الثورية فى سنة ١٨٤٨ لكى تتمكن الطبقة العاملة من أن تصل الى مرحلة الوعى بنفسها ومن أن تعمل على فصل نفسها نهائيا من بقية العوامل الاجتماعية كما قال برودون .

أما الفترة الثانية ، والننى تمتد من فبراير سنة ١٨٤٨ حتى مايو ١٨٧١ ، أى من الحكومة المؤقتة الى القضاء الدموى على الكوميون فانها مليئة بالفوضى وعدم الاستقرار . حقيقة أن الاشتراكية قد تدعمت كقوة وكفكرة ، وأن البروليتاريا قد تدعمت كطبقة ، وأخذت الثورة العمالية تنتصب مهددة النظام البورجوازي فى الوقت الذى قامت فيه الطبقات الحاكمة بالتكتل

العمال فيما بعد ، حتى وان كانوا قد فقدوا هذه السلطة بعد مرحلة كفاح . وينهى الكوميون الفترة الثانية التى يتأكد فيها ويظهر شكل المذهب الاشتراكى كقوة من الدرجة الأولى رغم عدم تنظيمها للافادة منها . وكان الكوميون هو الذى مكن الفترة الحديثة من أن تصل الى عقول الفلاحين وتجذب اليها تلك العناصر من البورجوازية وخاصة من بين المثقفين الذين فقدوا الأمل فى الحكم البورجوازي ، ومهدت لاتزاع السلطة بشكل نهائى ، ولتحويل الشكل العام للملكية ، وتغيير خطوط المثل العامة . لقد مهدت لهذه الفترة التى تعمل فيها الاشتراكية على تنظيم الطبقة الكادحة .

ويصل العالم الى أوائل القرن العشرين والاشتراكيون لا يخشون أى شىء . ذلك أن هناك وحدة للفكر بين الطبقة العاملة والحزب الاشتراكى . ورغم هجمات المجموعات والمناقشة السطحية فلقد اتحدت كل قوى البروليتاريا مستندة فى ذلك الى نظرية واحدة ومستعدة للقيام بعمل موحد . واذا تمكنت البروليتاريا من الاستيلاء على السلطة كلها فى هذه الفترة فانه يمكنها أن تديرها وبشكل مقرر ومحدد . حقيقة أنه سيقع تقارب بين بعض الاتجاهات ، وسيحاول البعض انتهاز الفرصة ودفع العمل المركزى رأسا الى صالح المجموع ، وسيحاول الآخرون أن يضمّنوا لبعض الجماعات المحلية من العمال أكبر درجة ممكنة من الاستقلال ، ولذلك فانه من اللازم أن تسليح الشعب بقوة كبيرة لكى يتمكن من تنظيم العلاقات الجديدة المتعلقة بالأمّة وبالمنظمات المهنية وبالكوميونات وبالمجموعات المحلية وبالأفراد ، ولكى يتمكن فى نفس الوقت

ولم تتأخر البروليتاريا الاشتراكية عن أن تلون بطابعها الثورى هذا التداخل والتضارب ، وبشكل سمح لماركس أن يقول فى دراسته المنتظمة عن الكوميون بأن الطبقة العاملة استولت على السلطة ولأول مرة . وكان هذا حدثا جديدا وله أهمية كبيرة. ولكن البروليتاريا كانت قد أفادت من هذه المفاجأة، وكانت متقدمة ولكن معزولة فى العاصمة، وكانت هى القوة الأكثر تنظيما والأكبر فاعلية ، ولكنها لم تكن فى وضع يسمح لها بقيادة وبتمثيل كل فرنسا . ذلك أن فرنسا كانت ملكا لرجال الدين ، ول كبار ملاك الأراضى وللبرجوازية التى كان رئيسها هو مسيو تيير . وكان الكوميون فى هذه الحالة يمثل رأس حربته محماة فى النار ستصطدم بكتلة كبيرة من الثلج . ورغم ذلك فان تقدم البروليتاريا كان كبيرا من سنة ١٨٤٨ الى سنة ١٨٧١ . حقيقة أن مشاركة البروليتاريا فى الحكم والسلطة سنة ١٨٤٨ كان اسميا ، خاصة وأن لوى بلان والعامل البير كانا مشلولين داخل الحكومة المؤقتة ، وكانت البورجوازية الحريصة تغشهم بالمصانع والورش الوطنية . وكان الاشتراكيون يناقشون بطريقة أفلاطونية فى لو كسمبورج ثم يتراجعون وييقون فى شكل اكاديمى ضعيف . ونقصتهم قوة العمل ، فهجروا الميدان . ولما ثارت الطبقة العاملة بعد أن اكتشفت الخديعة فى شهر يونيو ، قامت الدولة بضربها وقبل أن تتمكن من الوصول الى السلطة . أما فى سنة ١٨٧١ فان أبناء المكافحين فى يونيو قد احتفظوا بالسلطة ومارسوها ، ولم تكن سنة ١٨٧١ مجرد تمرد بل كانت الثورة .

ومع وصول البروليتاريا المحكم تمكنوا من اعطاء معنى جديدا للأمل لكل طبقات وأجيال

يختلفون عن بعضهم فى عواطفهم وأفكارهم ، وأن حياتهم معقدة ولا يمكن وضع شكل محدد ميكانيكى لأى شكل من أشكال تكوينهم الاقتصادى . وعلاوة على ذلك فانه رغم كون الرجل يعيش من الانسانية ويخضع للنفوذ الذى يحيط به من الوسط الاجتماعى ، فانه يعيش كذلك بحواسه وبقله فى وسط محيط أوسع هو العالم .

ولاشك أن نور الكواكب الغريبة عن هذا المجموع البشرى لا توقظ فى خيال الشعراء الا أحلاما تتمشى مع حساسيتهم ، وحساسية الفترات والعصور التى يعيشون فيها والسر العميق للحياة الاجتماعية . ومثل ذلك مثل الرطوبة فى باطن الأرض التى تتحول فى ضوء القمر الى ضباب خفيف يغلف المراعى . وبهذه الطريقة نجد أن مؤثرات النجوم والكواكب ، مهما كانت بعيدة تتكامل مع النظام الاجتماعى ومع القوى الاقتصادية التى تؤثر فيه - وكان جيته قد دخل يوما فى أحد مصانع النسيج وأبدى اشمزازا من هذه الملابس التى تتطلب أجهزة كبيرة فى صنعها ، ورغم ذلك فانه لولا هذا النمو الصناعى الذى قامت به البورجوازية الألمانية لبقى العالم الجرمانى ناعسا منقسما ، ولعجز عن فهم الحمية والغيرة التى خرجت من نفس فاوست .

ولكن مهما كانت علاقة النفس البشرية فى أحلامها بالنظام الاقتصادى والاجتماعى فانها تبعد عن الوسط البشرى وترتفع الى الكواكب والنجوم ، ويؤثر عليها الكون ، ويحرك فيها قوى غامضة وعميقة ، قوى الحياة المتحركة التى عاشت من قبل فى المجتمعات الانسانية . ولذلك فسيكون من الخطأ رفض الترابط الموجود بين الفكر وبين

من أن ينشئ الحرية الفردية فى الوقت الذى يدعم فيه التضامن الاجتماعى ، ولكى يتمكن أخيرا من اعطاء شكل قانونى للعلاقات الاجتماعية الخاصة بالملكية وبعمل الأفراد . ورغم ذلك كله فان الاشتراكيين قد وصلوا فى نهاية القرن التاسع عشر الى توحيد آرائهم ، وتجمعت الاشتراكية فى عناصر متحابة ومتكاملة ، وأصبحت تمثل وحدة احية كبيرة ، تنمو مع الزمن ؛ وأصبحت تمثل أمل القوى الانسانية الكبيرة ، وأمل العمل والفكر ، والعلوم والفنون وحتى الدين .

ولكن ، كيف تمكنت البروليتاريا من النمو؟ ، وعبر أى أزمت مرت ؟ وأى مجهود لزم لها لئلى تصل الى الدور الذى ستلعبه فى الغد ؟ انه قصة هذا الكتاب عن التاريخ الاشتراكى الذى ستقوم مجموعة من الاشتراكيين بروايته لأبناء بلدها . أنهم يعرفون أن التاريخ يستند الى عوامل اقتصادية كما يستند الى شكل الانتاج والى الملكية . وكما هو الحال بالنسبة لمعظم الرجال فان العمل والمهنة التى تمثل الشكل الاقتصادى للنشاط الفردى وتقدر غالبا عاداته وتقاليده وأفكاره وآلامه وأفراحه وأحلامه ، كذلك الحال بالنسبة للأمم ، فان البناء الاقتصادى للمجتمع يشكل نظمها السياسية وعاداتها وتقاليدها الاجتماعية ، ويشكل الخط العام لتفكيرها . ويحاول الكتاب أن يشرح كما يحاول أن يتتبع تطور الملكية وتطور الناحية كما يحاول أن يتتبع تطور الملكية وتطور الناحية التكنولوجية فى الصناعة والزراعة ، وأن يرسم الخطوط العامة لنفوذ وتأثير الاقتصاد على الحكومات ، وعلى الكتابات وعلى النظم .

وليس معنى ذلك انهم ينسون أن هذه القوى الاقتصادية تؤثر فى الرجال ، وأن هؤلاء الرجال

الأحلام فيما يتعلق بالنظام الاقتصادي وبالأشكال المحددة للإنتاج ، خاصة وأنه سيكون من الخطأ كذلك الإيجاز في شرح حركة الفكر الانساني وارجاعها الى مجرد تطور الأشكال الاقتصادية . وكثيرا ما ترتكز بروح الانسان على النظام الاجتماعي لكي تسبقه ولكي تقاومه ، وهناك تضامن وتعارض في نفس الوقت بين الروح الفردية والقوة الاجتماعية الموجودة . وكان نظام الأمم والملوكيات الحديثة التي وصلت الى نصفه ، تحرر من سلطة الكنيسة هي التي سمحت للعلم الحر بأن يتقدم مع كيبلر ومع جاليلي . ولكن بمجرد معرفة الحقيقة فان الروح لا تخضع للأمير أو للمجتمع أو للانسانية . انها الحقيقة في حد ذاتها بنظامها وتسلسلها ، التي تصبح مركز الروح . ورغم أن كيبلر وجاليلي قد قاموا بملاحظاتهم وابعائهم الفلكية على أسس تستند الى الدولة الحديثة ، فانهما بعد القيام بهذه الملاحظات وبعد قيامهما بعملهما وصلا الى نتائج لا يمتلكها سواهم وسوى العالم أجمع ، وانفتح العالم الاجتماعي الذي استندوا اليه وتزودوا منه ولم يعرف تفكيرهم أى قانون غير القوانين العالمية .

ولقد حاول چان چوريس أن يظهر دائما في مؤلفه كرامة هذه العقليات الحرة ، والتي تحررت من بين بنى الانسان لكي تعطى نتائج عملها للعالم أجمع . ويذكر چان چوريس أن أكبر المتعصبين من أنصار ماركس لا يمكنه أن يأخذ عليه هذا الاحترام ، خاصة وأن ماركس نفسه ذكر أن المجتمعات الانسانية لم تحكم حتى ذلك الوقت الا بالتواكلية وبحركات الأشكال الاقتصادية المتعددة . وأن النظم والآراء لم تكن نتيجة لرغبة الرجال في القيام بها وانشائها ، ولكنها

جاءت انعكاسا لعدم وعي الحياة الاجتماعية ، ولانعكاس هذه الحالة في عقل الانسان . ويعتبر ماركس ان العالم مازال في عصوره ؛ قبل التاريخ ، وأن التاريخ الانساني لم يبدأ حقيقة الا حينما يتمكن الرجال من التحرر نهائيا من طغيان القوى العاشمة ، ويحكم بعقله وبغريزته الإنتاج ، ويتحكم فيه وفي ذلك الوقت لن يخضع فكره لطغيان الاشكال الاقتصادية التي خلعها وادارها بنفسه ، وسيتمكن من أن يفكر في انكون وينظر اليه بأعين حرة . وهكذا كان ماركس قد بدأ في رؤية عصر حرية ثقافية كاملة يتمكن فيه الفكر الانساني من أن يتعامل مع العالم دون أن يشوه تفكيره ، أو يشوه العالم بهذا التفكير ، مادام قد تحرر من العبودية الاقتصادية ، ولكن ماركس لا يرفض الاعتراف في نفس الوقت بأن بعض النفوس قد ارتفعت ووصلت الى مستوى الحرية وحتى في عصور فترة الجهالة ، وأن هذه النفوس تستعد وتظهر في كل يوم أكثر من اليوم السابق وكان هذا هو هدف چان چوريس في كتابه ، وهو أن يحاول جمع المظاهر الأولى لهذه الحياة ولهذا الاتجاه ، وبشكل يسمح بتقدير هذه الحياة الحرة والتي تحررت من كل عبودية والتي تزود العالم بالعلوم وبوسائل العمل ، وحتى بالأحلام . وان ذلك في نظره ليمثل بداية تساقط بضعة أوراق في غابة ، وفي عدد بسيط ، ولكنه يدل في نفس الوقت على قرب هبوب عاصفة هوجاء تعطى نتائجها بشكل واضح وثابت .

ولهذا فان تفسيره للتاريخ هو تفسير مادي مع كارل ماركس وعاطفي ومعنوي مع ميشليه ، انها الحياة الاقتصادية التي كانت أساس وموئل التاريخ الانساني ، ولكن الرجل والانسان كان

عظمة أبطال العزيمة الذين ارتفعوا فوق
الاشتباكات الدموية ويعظم في نفس الوقت
البورجوازيين الجمهوريين في سنة ١٨٥١
والمكافحين من البروليتاريا الذين سقطوا في يونيو
سنة ١٨٤٨ .

ولكن من الذى سيلتفت الى عظمة الأعمال
والمحققات التى ضحى من أجلها هؤلاء
البروليتاريين ، خاصة وأنهم ضحوا بحياتهم
من أجل مثل عليا لم تكن قد وضحت بعد ؟ أن
الثورة الاجتماعية لن تتم فقط بقوة طبيعة الأشياء ،
ولكن كذلك بقوة الرجال وقوة الوعى والعزيمة .
وچان چوريس يذكر أن التاريخ لن يفتقر أبدا
الى رجال نبلاء يقظين وأن المستوى الأخلاقى
للمجتمع الجديد سيمتاز بوعى وإيمان يتسلح به
كل فرد وخاصة من بين أفراد الطبقة المكافحة فى
ذلك الوقت . وأخذ لذلك مثلا كل المكافحين
الأبطال الذين تحمسوا لأفكارهم رغم الاخطار ،
والذين استهانوا بالموت ، ووصلوا بذلك الى
مستوى الثوار . ويقول أنهم لن يصبحوا رجالا
ثوريين اذا ما قصرنا مجهودهم على قراءة حياة
الرجال العظماء لبلوتارك ، خاصة وأن عزائم
هؤلاء الرجال لم تؤثر كثيرا فى تطور الحوادث .
والمهم هو أنهم قد بقوا واقفين وسط العاصفة ،
ولم يظهر عليهم أى مظهر من مظاهر الخوف وسط
البرق والرعد والعواصف . واذا كانت عاطفة
المجد قد ايقظت فيهم عاطفة الحرية أو الشجاعة
للحرب فلا يمكن لأى فرد أن يوجه اليهم اللوم .

ولذلك فان چان چوريس قد حاول فى هذا
التاريخ الاشتراكى ، الذى يمتد من الثورة
البورجوازية الى الفترة الممهدة لثورة لبروليتاريا ،
حسب تسميته ، ألا يحدد أى شىء يتعلق بالحياة

يأمل ، عبر تطور الأشكال الاجتماعية والتنظيمات
الخاصة بالمجتمع ، فى أن يصل الى حياة يكتمل
فيها التفكير ، ويتكامل فيها هذا الترابط القوى
بين النفس القلقة والباحثة عن الوحدة، وبين العالم
الغامض . وهكذا ترتفع أمواج الثورة الاقتصادية
وترفع معها السفينة التى تحمل الانسان حتى
تسمح له بعد طويل صبر وكدح طول الليل ، أن
يحيى أول خيط من خيوط الفجر وأول خيط من
خيوط الفكر المتزايد الذى سيعم البشرية .

ورغم عمل چان چوريس على اعطاء تفسيرات
اقتصادية لأهم الأحداث العالمية فانه لا يهمل
الجانب الأخلاقى للتاريخ ولا يهمل الجوانب
المعنوية . أنه يعلم أن الكلمات المنمقة التى تسمى
الحرية والانسانية قد غطت فى حالات كثيرة ،
وطوال القرن التاسع عشر نظاما للاستغلال وللكبت ،
وان الثورة الفرنسية قد أعلنت حقوق الانسان
ولكن الطبقات المستلبة قد فهموا بذلك حقوق
البورجوازية وحقوق البورجوازية .

لقد أعلن البورجوازيون أن الرجال أحرار
حينما عجز الملاك عن أن يفرضها سلطتهم عليهم
الا عن طريق الملكية نفسها . ولكن الملكية هى
القوة ذات السيادة التى تسود كل القوى الأخرى .
ولذلك فان أساس المجتمع البورجوازى نفسه هو
أنانية تلك الطبقة المعقدة والمناقفة . ولكن الثورة
المولودة مزحت فى بعض ساعاتها بين مصالح
البورجوازية الثورية وبين ومصالح الانسانية
ووسط حماس بشرى يملأ القلوب . وكذلك
الحال فى اثناء الصراع الذى قامت به الفوضى
البورجوازية وفى أثناء كفاح الأحزاب وصراع
الطبقات ، اذ لقد خرجت منها أمثلة تروى العزة
والشجاعة والاعتداد . ان چان چوريس يحيى بكل

البشرية ، ولكنه حاول أن يفهم وأن يترجم هذا التطور الاقتصادي الأساسي الذي يتحكم في المخيمات ، وكذلك آمال الشعوب صوب الحقيقة ، وتطور وعي الضمير عند الإنسان وبطريقة نبيلة ضد الطغيان وضد الموت . ولكنه يعترف في نفس الوقت بأن زيادة الضغط الاقتصادي سيؤدي إلى تحرر البروليتاريا والوصول بها إلى المرحلة الإنسانية ، ولذلك فمن الواجب على القوة الكادحة أن تعي بوضوح ، وأن تصل إلى مرحلة من العلم وتحيط بالتاريخ وبالحركة الاقتصادية وتفهم العظمة الإنسانية . وحتى لا يتوه الفارئ ، حينما يقرأ هذا الكتاب ، فإن جان چوريس يشرح له أن طريقة الكتابة تأخذ من كل من كارل ماركس وميشليه وبلوتارك ، حسب الحاجة وحسب أهمية توضيح الأحداث ، وعلاقتها بهذا العامل أو بذاك .



ويشرح لنا جان چوريس نتيجة اعلان حقوق الانسان ، في أثناء الثورة الفرنسية ، على المستعمرات ، فيقول :

« لقد وضعت المستعمرات أمام المجلس الوطني مشكلة في غاية الخطورة، وعجز المجلس عن حلها ذلك أن البورجوازية الثائرة كانت موزعة في الميدان الاستعماري بين مثالية اعلان حقوق الانسان ، وبين مصالح هذه الطبقة ، حتى وان كانت مصالح قصيرة النظر وفي غاية الوحشية . لقد كان هناك رجال أحرار وعبيد ، في مستعمرات المارتينيك وجواد يلوب وسان دومينج ، وكان العبيد يزيدون في عددهم عن عشرة اضعاف عدد الأحرار . لقد كانت كل الأيدي العاملة هي أيدي العبيد ، وكانت كل أعمال الزراعة تقوم على هؤلاء العبيد البؤساء الذين انتزعوا من أفريقية ،

وكانت ثروة الملاك تقاس بعدد عبيدهم . فهل كان من الممكن الغاء نظام الرق ، دون زعزعة « النظام الاجتماعي » و « نظام الملكية » ومن أساسها في المستعمرات ؟ وهل كان من الممكن الابقاء على نظام الرق دون زعزعة « اعلان حقوق الانسان » من أساسه ؟ ولكن الرجال الأحرار كانوا ينقسمون إلى قسمين : فقد كان هناك البيض ، الفخوريين بنسبهم ، كما كان هناك المخلطون ، الذين يتوقون إلى المساواة . وكان البيض يحتقرون المخلطين ، رغم كونهم أحرارا ، وملاكا ، ويحتقرونهم كما يحتقرون الزوج ، وكان البيض يسيطرون على الحكم بمفردهم ، وحينما نشبت الثورة حاولوا الاحتفاظ بكل المكاسب ، وعلى حساب الملونين . وهكذا واجهت الثورة هذا التناقض الخطير ، والمزدوج في نفس الوقت ، تناقض الجنس بين البيض والملونين ، وتناقض الجنس والطبقة الاجتماعية بين الملاك البيض والعبيد الزوج . وما أن نشبت الثورة حتى شعرت المستعمرات بأنها ستؤثر على الأوضاع الاجتماعية فيها ، واستعدت لمواجهة الأحداث . فأصرت من ناحية على ضرورة حصولها على عدد كبير من الممثلين السياسيين في المجلس الوطني ، وحتى تستخدمهم في التأثير على ذلك المجلس . ولكنها أظهرت في نفس الوقت تحفظها على مسألة « السيادة الوطنية » ، رغم ادعائها الاشتراك في هذه السيادة ، وحاولوا الابقاء على المستعمرات خارج نطاق القوانين العامة للثورة . وذكروا بأنه لا يمكن أبدا لفرنسا أن تشرع لشئون السيادة ، وعلى شئون وأحوال الأفراد والمواطنين في المستعمرات والجزر . وإذا كانت حقوق الانسان تتطلب أن يحصل الرجل الملون على نفس الحقوق السياسية للرجل الأبيض ، وتطلب تحرير العبيد ، فإن

شخصيتها التاريخية فإن ذلك يرجع الى أنها افتقرت الى قوة التنظيم الحكومية اللازمة ، وافتقرت الى قوة الحماس الثورى . وكان النظام الامبراطورى الذى يدعى ويعتقد أنه قوى فى حقيقة أمره من أضعف النظم ، اذ أنه كان يفتقر الى قوة التقاليد التاريخية ، كما كان الحال فى نظام الماكنية القديمة ، وكان يفتقر فى نفس الوقت الى قوة الديمقراطية الجديدة ، التى كان يذكرها ، ولا يعرف كيف يتعامل معها . ولقد وضح ذلك الضعف فى دبلوماسية الدولة ، كما وضح فى قواتها العسكرية .

ونبدأ بمسألة توزيع القوات العسكرية الفرنسية على خط طويل ، ونذكر بعد ذلك أخطاء يافين الذى تمهل حول ميتز بعد الهزائم الأولى ، بدلا من أن يسرع بالانسحاب صوب شالون ، حيث كان يمكنه تكثيل قواته مع قوات مكماهون ؛ واخيرا فهناك خطأ الامبراطور مع مكماهون للتقدم صوب سيدان بدلا من الانسحاب صوب باريس ، وتغطية العاصمة بحركات حرة وسريعة من جيوشها الكبيرة . ولقد كان من المؤكد أنه كان فى وسع جيش الامبراطورية أن يواصل الكفاح ، رغم قلة عدده وضحالة تنظيمه لو أن فكرا مصمما وعنيذا أشرف عليه ، ولكنه كان خاضعا لرؤساء عاجزين وقليلى القيمة »

وبعد أن شرح الأخطاء الاستراتيجية والتكتيكية فى هذه الحرب بمعاركها ، رد على النظرية القائلة بأن القوة الجمهورية هى التى أضعفت الجمهورية فى حربها ضد ألمانيا - ثم عاد بعد ذلك الى العامل الأساسى فى نظره ، وهى درجة الثورية اللازمة عند الشعب للدفاع عن بلاده .

« ... ففى الوقت الذى أعلنت فيه الحرب لم

حقوق الانسان لن تطبق فى المستعمرات ؛ اذ ان المعمرين لا يوافقون على خرابهم ، ولا يوجد قانون أقوى من قانون الحياة .. ولم يقف بهم الحد عند هذه النظرية الجريئة . لقد أخذوا فى تنظيم أنفسهم » (١)

ويقول بعد ذلك :

« ولقد عرض الأمر بعد ذلك على الجمعية التشريعية فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٢ بعد ثورة الزوج . وسرعان ما حاول الحزب المعتدل ، حزب المحافظين أن ينتهز الفرصة لمهاجمة الديمقراطيين . انهم هم ، كما يقولون ، الذين عملوا على تهيج الزوج ، بتنبؤاتهم غير المعقولة ، وبأفكارهم عن المساواة ، وبوعود تحرير العبيد التى أوصلوها للمستعمرات . ومهدوا بذلك لعملية خراب سان دومينج ، وعملية خراب فرنسا .

« ولكن الجواب عليهم كان سهلا ، اذ ان العبيد السود لم يكونوا فى وضع يسمح لهم بالثورة لو أن المخلطين الأحرار والملاك بقوا متحدين مع المستعمرين البيض ، وكان فى وسعهم أن يبقوا متحدين معهم لو اننا منحناهم المساواة فى الحقوق السياسية ، ولو كان المعتدلون قد امتنعوا مع المعمرين عن شل مرسوم مايو ، فى عهد الجمعية التأسيسية ، وهو المشروع الذى كان يعطى حق التصويت للرجال الملونين الأحرار .. » (٢)

ويقول فيما يتعلق بالحرب السبعينية :

« اذا كانت فرنسا قد سقطت ، واذا كانت قد عجزت عن الاحتفاظ بنفسها ، فى هذه الأزمة الخطيرة ، وفقدت وحدة أرضها وجزءا من

(١) انظر : التاريخ الاشتراكي . المجلد الاول ص ٥٦٠ - ٥٦١ .

(٢) انظر : التاريخ الاشتراكي . المجلد الثانى ص ٩٥٨ .

تظهر بوضوح وسط تلك الأغلبية الساحقة التي
وقفت مندهشة وفي ذهول . لقد كان الشعب
خائفا وساكنا وأخرس . وتقدمت تلك الحفنة من
الرجال فى طرق شبه خالية ، وعبثا حاولت ان تزيد
صفوفها بعدد من المتفرجين رغم هتافها عاليا بحياة
الجمهورية وبالموت للبروسيين والدعوة الى حمل
السلاح . ولكن ، هل كان فى وسع الشعب أن
يقف مثل هذا الموقف اذا ما كانت هناك تمهيدات
جمهورية وثورية ؟ (١)

تكن الفكرة الجمهورية من القوة أو من الانتشار،
أو من درجة الحماس بشكل يسمح لها بانهيار
الفرصة وتعطى للأمة حركة مقاومة جماهيرية لها
وزنها . حقيقة أن بعض الجمهوريين والعمال
والاشتراكيين حاولوا تنظيم أنفسهم ، ولكن عدد
الرجال الذين كان فى وسعهم التصميم على القيام
بثورة جمهورية لصالح الوطن كان بسيطا . أما
تلك الحفنة من الأبطال التى حاولت ان تحتل مواقع
لا قبلت بقيادة بلانكى يوم ١٦ أغسطس فانها لم

(١) انظر : المرجع السابق : المجلد الحادى عشر . ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .